بدو في العراء

"يكفي أن تحل العتمة ليكسى العراء ويختفي"

كانت فاطمة جالسة داخل زريبة تملؤها رو ائح البهائم بشتى أنواعها؛ الأبقار، والماعز، والأغنام..وكانت توزع عليها الحبوب، والعلف، والعشب الذي جلبته من الحقول.

تصبب العرق من جبينها، وبدا العياء على محياها. ورغم ذلك، فقد قابلتني بابتسامة عريضة حينما نظرت إليها.

قضت طفولتها، ومراهقتها في المدينة. ما يعني أنها عاشت تجارب ومو اقف متناقضة مع حياة الدوار. وربما كانت لها آمال وأحلام وطموحات. فهي التي قضت حياتها في التحصيل الدراسي كي تحصل على وظيفة..لكن ماذا تقول للأقدار؟ هاهي، اليوم، توزع العلف على البهائم، كمسؤول يوزع الغنيمة على العمال، أو كأم توزع كعكة على أبنائها الصغار، أو ككلبة وفية وحريصة، تسلم أثداءها لجرائها الصغار.. لكن عليها بالصبر. عليها الاستمرار في الحياة، عليها أن تتأقلم مع وضعها الجديد. عليها أن تؤمن أن الحب لا يأتي، دائما، بالطيب وبالعسل.

طرق أبوها القائد باب المنزل ثم فتحته. سلم علي سلاما باردا، ودخل دون أن أطلب منه ذلك، وشرع بالمناداة على فاطمة، و أنا أر اقبه من الخلف. وقفت به قدماه عند بداية الزريبة. نادى، وردت عليه فاطمة:

- "انتظر حتى أنتهي من ألقي ما في يدي".

خرجت فاطمة، واستقبلت أباها بابتسامة، وحاولت أن تعانقه، لكنه تجنب ذلك، حفاظا على بدلته! أحسست بالذنب حيال تعامله البارد واحتقاره لزوجتي. دخلنا إلى الصالون، رحبنا به بحرارة، وبسرعة استحمت فاطمة، وأعدَدْتُ براد شاي، وإبريق قهوة، ووضعت الحلوى، وبعض الفواكه الجافة على المائدة. عطرت الجو برذاذ ماء الورد الليمون، خرجت فاطمة بلباسها الوردي، فبدت كوردة من الياسمين.

القائد ساخط على الوضع الذي تعيش فيه ابنته. وها هو، اليوم، يطلب منها، وبحضوري، أن تطلب الطلاق. استغربت فاطمة، ورفضت فكرته دون تفكير. ثم أردف قائلا: "صاحبي الباشا باغي يخذك".

استغربت فاطمة لقول أبيها، ولشهامته، ورجولته وغيرته...لم أتصرف إزاء قول القائد، وبقيت صامتا. فماذا سأقول لشخص أعماه الطمع، ولا يفكر في راحة أبنائه النفسية. يفكر في مكانته الاجتماعية، وفي مكانة أصهاره وأصدقائه.

انصرف القائد غاضبا متأسفا على ما آلت إليه ابنته. فقد ضحى بالغالي والنفيس كي تصير ابنته طبيبة أو محاضرة في الجامعة. لكن أحلامه انهارت وصرت كابوسا مزعجا، بل لا أستبعد أن يقتلني في أي لحظة تسنح له الفرصة. كثيرا ما ألوم نفسي على هذا الزواج ألا متكافئ. لكني حينما أتذكر حالة جارنا عزيز أحمد الله كثيرا، وأتعلق بفاطمة وبقلبها. فقد فكر عزيز في الزوج كي ينسى، لكنه فقد عقله بالنهاية بسبب صهره. أما جارنا الآخر المختار، فقد أحب شابة حسناء وحاول أن يستقر بعد أن تزوج؛ أن يكتري بيتا، ويؤثثه بشكل تدريجي. لكنه ظل طول حياته يرد ديون زواجه إلى أن مات!